بيع

الإدانة، ينظر نظرة تقزز لقومه من على منصة «لو فيغارو» البيضاء، فيقول بعد أن يعدد الجوائز الدولية التي حصل عليها فيلمه «وكيف رد العرب؟ بمقاطعتي!»

ضالة زياد دويري إذن أن يعزل نفسه عن العرب، يتحدث عنهم بضمير الغائب كما لو لم يكن واحداً منهم، وكلما ابتعد عنهم كلما تماهى أكثر مع الرجل الأبيض، وقد وجد ضالته تلك في «الصدمة». طوال الفيلم، نرى معاناة الإسرائيليين رأي العين (فنرى مثلاً صور القتلى والجرحى الإسرائيليين ونرى ضحكة الطفلة الإسرائيلية قبل أن تنسفها الإرهابية الفلسطينية). أما مأساة الفلسطينيين، فلا نراها (باستثناء مشهد وحيد يتعامل فيه جندي إسرائيلي مع المواطنين بشيء من الخشونة على حاجز عسكري) إلا من خلال خطب رنانة وتعميمات فارغة يسمعها من الفلسطينيين في نابلس – أولها خطبة مسجلة لأحد الشيوخ الإسلاميين (تثير امتعاض بطلنا العلماني المتحضر، طبعاً) عن عدم أحقية غير المسلمين في حجر واحد من المسجد الأقصى كأن الأمر نزاع طائفي على حجارة مسجد. وحتى مجزرة جنين لا يقدمها إلا من خلال تعميمات لا تحصي حتى عدد القتلى (بينما يصر على تذكيرنا مراراً بعدد القتلى والجرحى الإسرائيليين وتلك حيلة استعمارية قديمة تجعل من البيض أناساً نتعاطف معهم ونحزن عليهم، أما غيرهم فتحولهم إلى كتل بشرية لا عد لها ولا تعاطف معها ولا حزن عليها). وطوال الفيلم، نرى حاجزاً ما في تعامل أمين مع العرب الآخرين، ينظر إليهم من علو بتعاطف

> لم يخف أن فيلمه يرمي للحصول على إعجاب الرجل الأبيض، فيصفه في المقابلة الإسرائيلية بـ«فرصة لنظهر أننا لا نصدر الحمص والفلافل فقط»

أو بازدراء، يخشاهم أو يخشونه، يعاملهم بفظاظة ويعاملونه بعنف (بل إن مواجهة بين أمين والفلسطينيين الذين يدينون تماهيه مع دولة الاحتلال تذكرنا بالضبط بمؤتمر زياد دويري الصحافي ويخاطب أمين فيها مواطنيه بنفس عجرفة زياد كأن الأخير تماهى مع بطل فيلمه في طريقه للتماهي مع الرجل الأبيض). ويبدون أمامه دائماً كلغز مستغلق يحاول أن يفهمه وهو أمر متناقض إلى حد الإضحاك، فالمفترض أن أمين فلسطيني من نابلس، فلماذا يحتاج لأن يحاول أن يفهم أهل نابلس؟

وتلك هي النكتة الأكثر عبثية في الفيلم: أن أمين الذي يحمل جواز سفر إسرائيلياً ليس ممن يعرفون بفلسطينيي الـ 48 الذين فشلت إسرائيل في ترحيلهم، فمنحتهم جنسيتها اضطراراً ورفعاً للعتب، وإنما فلسطيني من الضفة ولد وعاش في نابلس قبل أن ينتقل إلى «إسرائيل» ويحصل على جواز سفرها كأن إسرائيل تمنح جواز سفرها هكذا للفلسطينيين. يريد دويري ومن ورائه كاتب الرواية أن يقنعانا أنّ أمين حصل على الجنسية الإسرائيلية نتيجة كفاءته كجراح (كأنه على الفلسطينيين أن يجتهدوا ويصبحوا مهنيين بارعين فتقبلهم إسرائيل القائمة على نظام الكفاءات لا على العنصرية، أو كأن الرازخين تحت الاحتلال يدفعون ثمن كسلهم وهي أكذوبة استعمارية قديمة - أو كأن الفلسطينيين لا يذهبون للعمل في تل أبيب والإقامة فيها وأخذ جنسيتها لحساسية في أنفسهم تجاه إسرائيل وليس لأن إسرائيل لديها ترسانة من القوانين والممارسات التي تمنع ذلك التنقل والاختلاط).

وفي مشهد من أكثر مشاهد الفيلم عبثية تمن صديقة إسرائيلية على أمين بأنهم أعطوه جنسيتهم، فيقول أعطيتموني إياها لأني أستحقها. تلك أماني وهلاوس زياد دويري (ومن ورائه كاتب الرواية وكل المتماهين مع الرجل الأبيض وعملاء الاستعمار)، أن يجتهدوا ويتماهوا فيقبل الرجل الأبيض بهم.

ينسى دويري أن إسرائيل لا تمنح جنسيتها للفلسطينيين هكذا ولا تقبل من الوافدين إلا من كان يهودياً (وحتى هؤلاء يلقون مشكلة في التماهي إن لم يكونوا أشكيناز)، وينسى أن الرجل الأسود (ومثله العربي) كما يعلمنا فانون، يظل آخراً بالنسبة للأبيض مهما اجتهد أو تماهى (وربما كان الغضب والعجرفة في نبرة زياد في مؤتمره الصحافي ردة فعل غير واعية على أزمة عدم قبوله كأبيض بالرغم مما قدم)، وينسى أننا نحن العرب على هزائمنا وخيباتنا، ما زال فينا نفس يأبى أن ينزجر إذا زجره الرجل الأبيض (سافراً أو متخفياً وراء المتماهين العرب)، ويأبى أن يعترف بإسرائيل.

* كاتب وباحث مصري مرشح لنيل درجة الدكتوراه في «جامعة كولومبيا»

وترويجاً وتحكّماً بالمضامين والمرويّات؟ وإلاّ أين كانت الدّعاية الإسرائيليّة اليوم لولا مُراكمة الأعمال السّينمائيّة المبهرة التي سهّلت لها الانتشار والقبول الواسعين لمرويّاتها وأمّنت لها احتكار دور الضّحيّة وتبرير الاضطهاد الإسرائيلي المستمر للفلسطينيين والعرب عن طريق تنميطهم وتشويه صورتهم، وإبقاء احتلالهم لأرض فلسطين كآخر احتلال استيطاني مباشر في هذا القرن؟

كسينمائي، ألا يُشعرك عملك بالمسؤوليّة الأدبية والأخلاقية والإنسانية تجاه شعبك وبلدك وهويتك؟ ألا يحتّم عليك عملك تملّك الإحساس المرهف، عند الفنان الحقيقي، بما يُحرّك النّاس ويُثير مشاعرهم ويجيّش عواطفهم؟ أم أنك مجرّد تقني بارد يركّب الصور والمشاهد ويضع الحوار والموسيقى لمن يُعطي جوائز أرفع؟

عندما اغتصب رومان بولانسكي ابنةَ الثّالثة عشر عاماً، لم يَقُل حاسبوني كسينمائي! بل توارى عن الأنظار كأيّ مجرم آخر وظلّ القضاء الأميركي يُلاحقه بعنادٍ لسنواتٍ طويلة.

فحوى القول، أن العمل السّينمائي ليس رخصةً مفتوحةً للتفلّت من الموانع الأخلاقيّة بداعي الفن والإبداع والحريّة وما شابه. وهو ليس رخصةً للنّذالة على أنواعها. والتّعامل مع عدو مجرم، والوقوف مع الجلاّد ضدّ الضّحيّة، وتجاهل العدوان والتّهجير والاحتلال وسرقة الأرض هي النّذالة الموصوفة في كلّ ثقافات العالم، سواءَ كان المرء سينمائيّاً أم رائد فضاء. نقطة على السّطر.

وهذا يكفي للمطالبة المُحِقّة والمُتحضّرة لك بالاعتذار عمّا فعلت. لكنك لن تعتذر، وحليفك الأهم هو هذا التردي الأخلاقي المشين الذي يدفع بعضنا للخلط بين الخطأ والصواب وبين الصديق والعدوّ وبين المُتبَجِّح والنّزيه.

أمّا عن وديع، في بداية هذا الكلام، ولا ألومَك إن لم تعرف، فهو وديع سعيد والد الراحل إدوارد سعيد، الفلسطيني الذي أفنى حياته في تحديد البوصلة، من قلب الوحش، والذي لم يتخيّل ربّما في أسوأ كوابيسه هذا القعر الذي وصلنا إليه: أن نتجادل حول إثم التّعامل مع العدوّ!

* كاتب لبناني

إلى أبو عماد

محمد بكري *

هناك أناس يعيشون في بلاد وآخرون تعيش بلادهم فيهم. «وحدها فلسطين لا أقول لها وداعاً بل إلى اللقاء». كتب المعلم الأديب المؤدب المربي المناضل الحالم محمد كامل خشّان، أبو صديقي عماد الذي أفخر بصداقته، والذي يعيش في نيويورك أينما منعته الحدود والأوراق للمثول لوداع أبيه إلى مثواه الأخير. محمد كامل خشّان، هذا الشيخ الطفل البريء الحالم ربى أجيالاً فلسطينية تعتز بكونها أبلغ. وتحلم بالعودة. هذا الرجل الذي خط بروحه «الخط الشمالي» روايته التي تحكي وتحاكينا في تفاصيل امتدت على أكثر من سبعين عاماً. منذ نعومة أظفاره في «سحماتا»، ومن ثم اقتلاعه منها إلى أن استقر وعاش حياته كلها في لبنان.

سحماتا تبعد عن قريتي «البعنة» في الجليل الغربي الأعلى بضعة كيلومترات. حالفني الحظ أن تحدثت مع أبو عماد مرتين، المرة الأولى قبل أكثر من سنتين وكان ما زال معافى، وكان صوته كصوت عماد صديقي تماماً، والمرة الثانية قبل شهرين وكان صوته كصوت عماد مريضاً حتى أنه تعذر عليه إنهاء المكالمة. كنا قد اتفقنا أن أهاتفه عبر «السكايب» من سحماتا لأوثق اللقاء بالصورة وليدلني على سحماتا بخباياها وحاراتها وبيوتها وأسمائها، لكي تبقى ولا تموت بعدما غاب أصحابها.

كنت أحلم منذ مراهقتي أن أصل إلى بيروت معقل الكرامة، الثورة والمقاومة. قبل ثلاثة أيام من وصولي الآن إلى بيروت بمبادرة أصدقاء في جمعية «أساس»، وجريدة «الأخبار» لتقديم بعض العروض السينمائية والمسرحية، تذكرت أبو عماد فذهبت برفقة ولدي حسن لأصور المكان، لعلي أقطف بعض ما تقع عليه يدي من سحماتا المهجرة. قطفت وصوّرت ما قطفت من رمان وبطم وزعرور، والتقطت بعض حجارة المكان وخشبة يابسة من جذع شجرة ماتت. كان الطقس حاراً جداً وقد طغى الأصفر واليباس سحماتا. كنت حزيناً فأوعزت ذلك للحرّ الشديد معزياً نفسي. لاحظ حسن ابني ذلك، فسألني كم هو عمر أبو عماد. قلت: تجاوز الثمانين ولكنه مريض جداً، وليتني أصل غداً إلى بيروت لأراه وأسلمه بيدي هذه الفلقات من حجر وشجر. بعد ساعتين، وصلت إلى بيتي في البعنة حاملاً رمانتين وثلاث حجارات صغيرة و«كمشة» من البطم والزعرور وخشبة. بعد دقائق من دخولي إلى البيت، فاجأني ولدي آدم وهو يقرأ وصية صديقي أبو عماد التي كان قد كتبها ونشرها على الفايسبوك.

توفي محمد كامل خشان في نفس الساعات التي كنت فيها في سحماتا. لم يتحقق حلمي بلقائه. حلمت أن أكون في بيروت منذ كنت طفلاً مراهقاً. تحقق حلمي في الستينات من عمري في هذه الزيارة، ولم يتحقق حلمي في لقاء أبو عماد بسحماتا بملامسة حجارة بيته وخشبته اليابسة وثماره التي فارقها منذ أكثر من سبعين سنة.

لعن الله من جعل البيوت تموت بعدما غاب أصحابها.

* **ممثل ومخرج فلسطيني**
بيروت 18 أيلول 2017
(ذكرى مجزرة صبرا وشاتيلا).